

اجتهادات مناهاتُ الاتفاق والاختلاف

لم يعرف البشر الراحة منذ أن أقاموا تجمعات، ثم يعيشون فيها. لم تكن قضايا الاجتماع البشرى، مجتمعات تزعجهم فى المراحل السابقة، التى توصف بأنها بدائية. ولكن ما إن بدأوا فى العيش معًا حتى أصابتهم حيرة بشأن طرق تنظيم حياتهم، فدخلوا فى مناهاتٍ يكثر فيها التيه.

وليس جديدًا الجدلُ الراهن فى العالم حول النظام السياسى المناسب فى ظل ما يعتبرها البعض أزمة تمرُّ بها الديمقراطية التمثيلية. يجادلُ من يفترضون أنها أزمة انهيارٍ بأن تركيز السلطة يتيحُ فرصًا أفضل للتنمية والنهوض مقارنةً بتوزيعها. وكانت تلك هى نفسها المجادلة التى استندت عليها معظم حركات التحرر الوطنى التى تولت السلطة بعد إنهاء الاستعمار، ورفضها عددٌ قليلٌ منها أهمها حزب المؤتمر فى الهند.

وبغض النظر عن المقارنة بين ما آل إليه الحال في الهند, وفي بلدان أخرى مضت في طريق مختلف عنها, يبقى الجدل حول هذه القضية مستمراً. ولهذا الجدل أوجه عدة ربما يكون أهمها الآن ما يتعلق بفضائل أو رذائل كل من الإجماع القائم على التوافق العام, والاختلاف الذي يخشى كُثُر من صراعاتٍ وصداماتٍ قد تترتب عليه.

تقوم مجادلاتٌ من يرون أن فضائل السعى إلى توافقٍ أكثر من رذائله, كونه **Consensus** يخلق إجماعاً ضرورياً لتنظيم التفاعلات البشرية. ولكن السعى إلى إجماع توافقي يثير قلق آخرين, حتى إذا كان من أسفل لا من أعلى.

وهم يجادلون بأنه كلما ازداد معدلُ الاتفاق في أى مجتمعٍ قلت مساحةُ الحرية فيه. ومؤدى هذه الرؤية أن عقلنة المجال العام ترتبطُ وجوداً وعدمًا بفضاءٍ واسع للاختلاف.

ويتبنى كثيرٌ ممن يشكون فى جدوى التوافق العام، أو
يعتقدون فى عدم إمكان التأكد من سلامته، رؤيةً ما بعد
حادثة تُتكرّر وجود آية حقيقة. ويدفع المراهنون على هذا
التوافق بأنهم لا يبحثون عن الحقيقة، بل عن طريقة
مناسبة للفاعل البناء تكون قابلةً للمراجعة إن لم تُحقق
الغرض منها.

وليس هذا إلا نُذْرًا بسيطًا مما يدورُ فى مناظرات حول
قضية واحدة من قضايا الاجتماع البشرى التى تزدادُ
عددًا وتعقيدًا، على نحوٍ يُنذرُ بطول توهان.